علاج علل المجتمع الإسلامى

لفضيلة العارف بالله تعالى

سيدى الشيخ / محمد الحافظ التجانى المصرى

الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،،

الأمم ومثلها :

إن للأمم كالفرد صحةً وسقماً ، ورفعةً وانحطاطاً ، وعزاً وذلاً ، وكما أن الجسم تعتريه أمراض يحتاج فيها إلى طبيب يصف لها الدواء فكذلك الأمم سواء بسواء ، فمن المستطاع أن تمثل الأمة بفرد ، فإذا رأيت رجلاً لا يستطيع أن يجد وسائل الحياة كمطعم أو مشرب ، أو حُبس عنه الهواء الصالح ، أو اعتراه مرض ، أو أصيب بعارض خارجى ، أو كان لا يقوى على الدفاع عن نفسه وهو بين وحوش ضارية فإننا نعلم أنه ميت لا محالة ، فإذا حصل على قوته وسلم من الأعراض الداخلية والخارجية وتوفرت لديه وسائل الدفاع عن نفسه استطاع أن يعيش ، فلتكن الأمم كذلك .

طبقات الأمة :

ويصح أن تقسم الأمة إلى طبقات ، علماء وأمراء وأغنياء وعامة ، فالعلماء أخص وظيفة لهم بيان أحسن الوجوه فى تنظيم الأمم ، والأمراء ينفذونه ، والأغنياء يساعدون بمالهم ، والعامة بأجسامهم .

مثل المجتمع الصالح :

وقبل أن نتكلم فى تفصيل العلل فلنتصور مجتمعاً إسلامياً سليماً من العلل ، ثم نقارن بينه وبين مجتمعنا الحاضر ، وبهذا يسهل وضوح الدواء .

إذا أردت ذلك فتصور أمة مستقلة تجد كفاية أفرادها من مطعم ومشرب وملبس وغير ذلك من صناعة أو زراعة أو تجارة ، وغيرها من أسس الفضائل التى يتحقق بها هذا المثل .

الحُكم العادل :

القانون السارى عليها من أميرها إلى صغيرها هو قانون العدالة الصرفة ، الكتاب والسنة ، وليس فيه استثناء بوجه من الوجوه ، فلا أحد فوقه بحال .

الحاكم الطبعى :

الحاكم فيها يُشعر كل فرد من الأمة أنه أب أو أخ أكبر ، يُقدر محسنهم قدره ، ويُكافئه على إحسانه ، ويؤدب مسيئهم بما يصلحه ، يحبهم ويحبونه ، ويرون فيه الأمير الطبعى ، بحيث لو لم يكن أميراً وقامت بينهم خصومة يرتضونه حكماً من جذر نفوسهم لما يعلمون من سداد رأيه ونزاهته ، ومع ذلك لا يستبد برأيه ولا يستقل بهواه ، يستشيرهم وينزل على الرأى الصائب منهم ، لا يستنكف أن يطرح فى الحق رأيه لرأيهم ، يقاسمهم العواطف ، فيفرح لأفراحهم ويحزن لبأسائهم ، يرون منه الصديق الصدوق والخادم الأمين ، لا تنظر إليه الأمة نظر المسجون لسجانه ، ولا الرقيق لسيده ، يحرص عليهم أكثر من حرصه على حياته ، يكون أول من يفدى أمته بنفسه وأهله وماله ، ولا يترك سبيلاً مشروعاً لتقويتها ، حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها ومراعاة مصالحها .

علماء الدين والدنيا الأمناء العاملون :

وترى العلماء فى سائر فروع العلوم من حكمة وطب ورياضة وأخلاق واجتماع ، من كونيات وجسمانيات وروحيات ، كل يخدم المجتمع بأقصى وسعه ، لا يدخر من جهده فى سبيل النفع العام ، ولا تظن أن الإسلام حصر العلم فى الشئون الفقهية أو التوحيد ، فما ترك شأناً من الشئون إلا وقد حث عليه ، ويجب شرعاً وجوباً كفائياً ـ إذا قام به البعض سقط عن الكل ، وإلا أثم الجميع ـ أن يكون فى الأمة من يعنى بطب أبدانهم ، ومن هو لطب نفوسهم ، ولتنظيم المجتمع وحمايته من الفوضى الحسية والمعنوية ، وللبحث فى تنمية موارد ثروتهم بسائر الوسائل

الشريفة ، ومنافسة الأمم فى الزراعة والصناعة والعلم ، فإن العلم قد أصبح من وسائل الدفاع عن الأمم ، وها نحن أولاء نرى أثره فى الحرب والسلم .

وليس تنمية الثروة للإغراق فى الرفاهية ، بل لتقوية جبهة الدفاع عن الأمة ، ولتخفيف ويلات الإنسانية البائسة .

علماء قد علموا الدين حق علمه ، بحثوه من الوجهة الاجتماعية ، واستخرجوا منه قانوناً يلائم المجتمع ، لا يتقيدون فى ذلك برأى إمام بعينه ، إلا صريح الكتاب والسنة ، ولا تصادم آراؤهم إجماع الأمة ، ولا تخرج عن مجموع آراء السلف الصالح فيما لم يصح فيه إجماع ، كالحال فى الصدر الأول ، منهم علماء النفس الذين عرفوا منشأ عواطفها وميولها وكيف يسوسونها ، وعلماء التزكية الذين عرفوا ما وراء المادة وألمسوا الناس وجودها بعد أن أنكروها ، أولئك ذوو المتانة فى الدين والعراقة فى الأخلاق .

الأغنياء القائمون بواجبهم :

ويُرى الأغنياء قد شكروا النعمة وعطفوا على الفقراء ، وحرصوا على استثمار مرافق الأمة ، ولم يتركوها نهباً للدخلاء أعداء الأمة ومحاربيها ، وتضافروا على إنماء مواردها ، وابتكار الأعمال النافعة لها من الوجهة الاقتصادية ، لا يستبدون بالعمال ، ولا ينكرون جهودهم ، ولا يحرمونهم ثمرة عملهم ، ولا ينتقصون أجورهم ، ويساعدون النهضة الأدبية والمشاريع العلمية والأخلاقية ، ويؤسسون الجماعات النافعة فى سائر فروع الحياة العملية والعلمية ، والجمعيات الخيرية التى تؤسس لتخفيف ويلات البائسين المنكوبين .

فكم رأينا من سراة[1] الإفرنج ـ الذين كونوا ثروتهم من دمائنا ــ من أهدى لدولته من المؤسسات الحربية ما كان سبباً فى نصرتهم على المسلمين ، وكم رأينا ما يُبذل من جهود جبارة فى تكوين أمة من العدم وتقويتها فى سائر المرافق .

---

١ ــ الأغنياء .

أغنياء لا يسرفون ولا يبخلون ، علموا ما فرض الله عليهم وما ندب إليه فتبـاروا فـى سـبيل الخير .

جمهور الأمة النشيط فى دينه ودنياه :

والسواد الأعظم من الأمة يخدمها بعمله ، ويسعى لطلب قوته وإدخار شئ لنوائبه ، ويـشترك مع الأمة فى تكوين ثروة عامة لها ، وتعد بهـا مـا اسـتطاعت مـن وسـائل الـدفاع عـن كيانهـا ، ويسعى فى طلب العلم النافع ديناً ودنيا ، ويعلم فـرض العـين الـذى يجـب علـى كـل مـسلم ، ويسأل العلماء فيما وراء ذلك مما هو من فروض الكفاية إذا قام به الـبعض سـقط عـن الكـل ، ويجتهد فى معرفة المستطاع منه ، لا يصدر إلا عن علم ، ولا يتحـرك ولا يـسكن إلا عـن فقـه ، ولنمثل الطبقات بقوم ركبوا خيولهم وأخذوا يتسابقون إلى نقطة مخصوصة هى كمال المجتمع .

إضواء الإسلام لأهل الكتاب تحت رايته :

وقد اتسع الإسلام بسماحته وتسامحه أن يضم أهل الكتـاب تحـت جناحـه ، ممـن يـؤمن بـالله وبرسالة من عند الله والتكليف والجزاء ، ماداموا لا يسعون فى الإيقاع بهذا المجتمع ، ويعتـبرون أنفسهم جزءاً يكون مع المسلمين جامعة يجمعها اعتقاد الألوهية والبعـث والحـساب والعقـاب ، ويشتركون معها فى إعداد وسائل الدفاع عنها ، وتوفير سعادتها ، وعدم الإضرار بأحد منها .

يتعاونون مع الكل تبعاً لذلك القانون العادل الذى يـسوى بيـنهم وبـين غيرهـم ، بحيـث لـو اعتدى أكبر أمير مسلم على أدنى خادم منهم فكلاهما لديه سواء ، يأخـذ مـن الظـالم للمظلـوم بحقه ، ولا عجب فسماحة الإسلام هى السماحة اللائقة بدين العـالم فـى سـائر العـصور ، وقـد حثت سائر الكتب المنزلة على التمسك بالفضائل وعدم الاعتداء ، ولا شك أن من لم يعتقد بعثـاً ولا جزاءً على عمل مظنة الاسترسال فى الهوى ، وإذا سولت له نفسه أمراً يضر بالمجتمع وتمكـن منه من غير أن يخشى ضرراً ولا رادع له من نفسه يزجره ، فهو أحرى أن لا يرقب فـى أحـد إلاً

ولا ذمة ، ولا يخشى حساباً ولا عقاباً متى أفلت من عقاب الحكومات ، ومن باب أولى من لا يعتقد أن الله أرسل رسلاً وكلف الناس بحقوق وواجبات .

أما من أنكر الألوهية فقد سد على نفسه الباب ، وقد حاربت الحكومات فكرة الشيوعية[٢] لخروجها على المجتمع .

من هذه الوحدة التى يجمعها نظام المكارم ، ويسودها العدل والإحسان ، يتكون المجتمع الإسلامى الصحيح ، وهذه هى الصورة الصحيحة لمدنية الإسلام .

السبب فى تأخر المسلمين :

فما الذى حدث حتى قوض ذلك الصرح الشامخ وبدد تلك الوحدة ، فأصبحنا جماعات متفرقة ، وانفض ذلك الوئام ، وأصبح أكثر الأمم الإسلامية مندمجاً فى الأمم الأخرى ، وغدا الإسلام غريباً حتى فى دياره ؟

بداية التحول :

فى عهد السلطان سليمان القانونى ، خليفة المسلمين بالآستانة ، طلبت الدول الأوروبية امتيازاً فى أن تحاكم رعاياها بمعرفتها لا بأحكام البلاد الإسلامية ، وكانت الأحكام بالشريعة الإسلامية فى سائر أنحاء الخلافة .

ثم ابتليت بعض الدول الإسلامية بالاحتلال الأوروبى ، فتسبب هذا الاحتلال على ترك العمل ببعض الأحكام الشرعية شيئاً فشيئاً ، وأخذ بهرج المدنية الغربية يغرى الحكومات الإسلامية فعملوا على تقليد الغربيين فى مظاهرهم ، ولم يقلدوهم فى الاستعداد والقوة ، مع أن الله تبارك وتعالى قال فى كتابه العزيز : (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**)[٣] ، وأخذ هذا الداء يشرى حتى استفحل ، وتضاعفت الامتيازات حتى كمموا أفواه العلماء ، ومن جهر بالحق منهم نكل به فى رزقه وفى نفسه وفى أهله وشرد .

---

٢ ــ هذه الرسالة طبعت قبل انتشار الشيوعية .
٣ ــ سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

وكان من نتيجة ذلك أن أخلت كل طبقة من المجتمع بواجبها ، فأصيبت بدائها المقوض لكيان الجميع ، وقد يمرض الصحيح لأنه تعاطى شيئاً لا يحسبه مُضراً ، أو لأنه يراه نافعاً وهو مضر ، ومن لم يدر مضرة طعام فإنه لا يتحرج منه ، فكيف إذا ظن العقاقير الضارة دواءً شافياً !

ومن المرضى من يعلم مضرة طعام أو شراب له ، ومع ذلك لا يمتنع عنه ، وها نحن أولاء نرى من يدمن الشرب أو يتعاطى العقاقير الضارة مع تحققه الضرر فيها ، وذلك نتيجة ضعف الإرادة ، وانحطاط الخلق النفسى ، وفقدان الشجاعة .

الأدواء الخاصة بطبقة العلماء :

أما العلماء ـ إلا من عصم الله ـ فقد استمال بعضهم الحكام ، وجاروهم رهبة أو رغبة ، فالتمسوا لهم وجوهاً يحملون عليها ما فعلوه ، فمتى أراد الحاكم أمراً قلبوا الشريعة رأساً على عقب ليجدوا له بعض الأقوال المنبوذة يرضونه بها ، ولو جاء غيره وخالف هواه هواه لوافقوه أيضاً ، ولتمحلوا له الفتوى بما يناقض فتواهم الأولى ، ولا يعدمون لذلك عذراً ، فأصبح هواهم سباقاً للشريعة ، ينزلون الشريعة عليه ، يتقدمون بين يدى الله ورسوله .

وقد أدركنا بعض الكبار من أفتى بحرمة الربا وجاء بالقول الحق فيه ، وما مضى زمن حتى أصدر فتوى ناقض فيها نفسه ، وأفتى بإباحة ما صرح بأن الله حرمه ، وأحتج بأن هذا من تغيير الاجتهاد .

ثم اشتغلوا بالنزاع فيما بينهم والتعصب لآرائهم ، وكلما أراد المخلصون تقريب شقة الخلاف أبعدوها ، فاختلفت كلمة الجماعة ، وسكنت الحفيظة الأفئدة وملأت قرارة النفس ، وشاعت فى الأمة ، فتفرقوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون .

فتأصلت فيهم الأثرة وحب المال ، وتمكن الجبن من قلوبهم ـ إلا من عصم الله ـ وشلت ألسنتهم عن نصرة الحق ، يقررون لك الفضيلة بأحسن بيان ، فإذا طبقتها على أحوالهم رأيت عجباً ، يقول صلى الله عليه وسلم : ((**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت**)) .

وقد قدمنا أن العلماء هم هداة الأمة ومصدر وضع نظمها ، وهم قادة الرأى العام القابضون على زمامه ، يسيرونه تبعاً للحق ، فتركوا هذا الواجب ، وثقل الحمل على عواتقهم فوضعوه ، فتقاسمه غيرهم ممن ضعفت معرفتهم بالدين ، أو ليسوا على دين ، فساروا بالخلق فى طريق عوجاء هوجاء ، وسكت أولئك ، حتى ضعف صوت من بقيت فيه الغيرة والحمية منهم فلا يسمع له قول ، لأنه يعد بين الناس أصغر شأناً منهم فى الدين ، وطابع العصر الحاضر يتيح لأولئك ما لا يتيح لغيرهم ، فإن تحرك أحد بطلب أمر من من الإصلاح العملى ودعاهم للاشتراك معه ، قالوا : هذا فرض كفاية متى قام به البعض سقط عن الكل ، مع علمهم أن الطلب إذا كان هيناً تضيع به الحقوق البينة ، وأنهم لو أجمعوا كلمتهم لسمع قولهم .

وإن وجدت عالماً منهم له دين واستقامة تجده مبتعداً عن الدنيا ، لا يتدخل فى شئون المجتمع الإسلامى تدخلاً عملياً له أثره الفعال فى النواحى الأخلاقية والاجتماعية ، يكتفى برحمةٍ وأسفٍ على ما فيه المسلمون ، ولا يتحرك لمداواة الداء ، وهذا من أمثلهم .

وما رأينا عالماً قام بدرس شؤون المجتمع فى هذا العصر ، وسن نظاماً عاماً استمد من الشريعة الإسلامية بلغة سهلة غير معقدة ، أو بعبارة أوضح : شرح النظام الإلهى شرحاً بيناً ، وأقام الدليل من حكمة التشريع على أن هذا النظام هو دون غيره الكفيل بسعادة بنى الإنسان ــ ولن يعدم بينات فى أصول المجتمع تشهد للكتاب فإنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ نظاماً يستوعب سائر مرافق الحياة ، ويؤلف بين نواحيها المختلفة .

نتائج تقصير العلماء :

وماذا نتج عن ذلك ؟ انساق الناس إلى أن العلماء اتهموهم بجهل النظم الاجتماعية ، وولى ذوو النفوذ شطر البلاد الغربية ، ونقلوا أنظمتها وتشريعها ، وحكموا فى القضاء بينهم ما وضع لغيرهم ، وعاداتهم وأخلاقهم وآدابهم غير عاداتهم وأخلاقهم وآدابهم .

وسقطت حرمة العلماء من قلوب ذوى المكانة فى الأمم الإسلامية ، إلا ما قضت به المجاملة الظاهرة ، لأن أكابرهم يتملقون الحكام ، ويتسكعون على أبوابهم ، ويتزلفون إليهم ، ويحرصون على مرضاتهم حتى فى أمور من كرم الأخلاق أن لا يبالوا بغضبهم فيها .

أدواء طبقة الحكم :

ونشأ عن ذلك أن حكومات إسلامية هجرت نظم الإسلام فى معاملاتها ، واستنكرت بعض تشريعه ، كقطع اليد مثلاً ، ولو أنصفوا لرأوا ـ والتجربة أعدل شاهد وأصدق برهان ـ أنه إذا قطعت يد واحدة أحيت مئات من الأرواح ، وأنَّا بقطع عشرات من الأيدى الأثيمة ننقذ ألوفاً من الأرواح البريئة ، ونظمت تلك الحكومات شؤون التعليم للنشء على أن تعدهم لحياة كحياة الأمم التى نقلت عنها نظمها .

واستقر فى قلوبهم أن الدين مادام أمراً شخصيا بحتاً فإن الألفة العامة منوطة بأبحاث أولئك الذين عنوا بعلم النفس ، وقتلوا المجتمع الإنسانى بحثاً ، وخبروا طبائع الناس ، ودرسوا الحياة العامة والخاصة ، فكانوا بطبيعة مركزهم بين الأمم أطباءها ، لا من ينقل لك رأياً لم يدرسه ولم يطبقه عملياً على الواقع من النظم الثابتة المطردة فى سير الأمم وتطورها ، ومادام الأمر كذلك فلا تقوم الروابط لنظام الحياة إلا على ما سنه أولئك القوم ، وها هى ذى تركيا أدخلت تلك النظم فى الحياة المنزلية وجعلت الدين قاصراً على معاملة الفرد بينه وبين ربه ، وحاولت الأفغان ، وتحاول فارس[٤] ، ومن يدرى ماذا يكون بعد ؟

اتسعت الوهدة[٥] ، وأصبح الحكم بغير ما أنزل الله ركزة المجتمع الإسلامى التى تقوم عليها النظم ، وأبيح للأمة ما كان يجب حظره عليها ، مما هو داؤها الذى لابد أن يكون له أثر فى أخلاقها وآدابها وتفكيرها ، حتى فسد المنطق الذى فى الرؤوس ، ومتى اختل الميزان الذى توزن به حقائق الحياة فماذا تنتظر من حصافة أو سداد أو فضيلة !

---

٤ ــ هذه الدول تبعت تركيا ، وتبعتهم تونس وبعض الدول الإسلامية .
٥ ــ الأرض المنخفضة .

الأغنياء وأدواؤهم :

فلما غدت ركزة العالم الإسلامى غير الركزة الإسلامية ـ وإنما هى أشواب[٦] من صور تجمع الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، والخير والشر ـ بل نزعة الشر فيها أغلب ـ فسدت الأخلاق ، وانغمس الأغنياء فى الترف ، وفشت الأثرة وحب الذات والغرق فى اللذات ، فبخل الأغنياء بمالهم ، إلا على شهواتهم فقد أسرفوا فيها أيما إسراف ، وأتلفوا أموالهم مخيلة ورئاء ، حتى إن الكثيرين منهم ليساعد أعداء الدين .

وفى بعض المدن أقام المبشرون المعاهد التى تسرق أطفال المسلمين فى عقائدهم ، وتنشر عن الدين أقبح الفرى ، من أموال أولئك المسلمين السراة ، بينا أحدهم ليبخل أن يواسى جاره الفقير أو قريبه المعوز ! وكم أنفقوا فى دور اللهو ما آل إلى الأمم الذين أمعنوا فى عدواة الإسلام والنكاية له .

فكانوا عوناً لأعداء الدين ، وعذاباً على أهله ، وكانوا ثلمة[٧] فى الأمة ، وكانوا للدين والمكارم خذلاناً ، وإذا دعوا إلى مكرمة ثبطهم فساد الفكرة المستقرة فى أذهانهم ، وعدم تقدير الإصلاح الذى لا يشعر به المفسدون ، والبخيل منهم الذى ضن بماله فهذا عبد الدينار والدرهم ، فلا يرجى منه خير .

وأثقل شئ عليهم جميعاً ـ إلا النادر ـ أن تحثهم على مشاركة الأمة فى تخفيف مصابها فى الخلق والعلم والمكانة الاجتماعية ...إلخ ، وسرى ذلك إلى العامة فطم الفساد وعم البلاء .

ومن العجيب أن فقدان الثقة فشا فيما بينهم ، ووضعوا ثقتهم فى الأجانب فجعلوهم مثالاً لهم يقلدونه ويسيرون على نهجه ، ويفخرون بانتسابهم إليهم ، حتى ليود أحدهم أن ينسى الناس أنه من دمه الذى هو منه .

---

٦ ــ مزيج .
٧ ــ جرح .

سريان الفساد لجمهور الأمة :

ولا نزاع فى أن السواد الأعظم من الناس لم يكمل تهذيبهم ، فإن جوعت أحداً منهم ثم سهلت له سبل السرقة فقد أغريته بها ، وإنك إذا سهلت للناس سائر وسائل الشهوات وأردت مع ذلك أن يحافظوا على العفة والكمال ، فإنك مع هذا الإغراء لهم واجتماع الدواعى الشديدة والدوافع تكون قد كلفتهم ما يشق عليهم ، وليس بعجيب ألا يحافظوا عليه ، فأصبح الرأى العام ممتلئاً بذلك المنطق الغريب ، فتكيف الناس به ، وجرف الكثيرين تياره ، ونشأ من نشأ ، وينشأ من ينشأ فيه خاضعاً لمقتضياته ، ولأذكر لكم كيف ينشأ الخُلق فى الإنسان :

كيف ينشأ الخُلق فى الإنسان ؟

اذهب إلى أى شعب من الشعوب تسوده عادة ، وهبها أكل لحوم البشر كما يذكر عن نيام نيام ، فإن من نشأ وسط هذه العادة لا يستنكف منها ولا يرى فيها غضاضة ، ومثل ذلك من ينشأ وسط قبائل ترى نهب الحاج جائزاً ، والاعتداء على غيره من القبائل فضيلة ، وقل ذلك فى فتاة تنشأ قى قوم يرون لها أن تكشف ساقيها وصدرها وظهرها ، وأن تخلو بمن تشأ وترقص مع من تشاء ، بخلاف من ينشأ وسط قوم يستقبحون ذلك ، فإن النفرة التى يشب عليها تستقر فى قلبه ، فإذا هم بها نهاه وجدانه لما خالطه من الشعور الذى تأصل فيه ، فإن غلبته الدواعى حتى أتاها أنَّبه الوجدان ، وتوالى عليه توبيخ الضمير ، وذو الوجدان الحى لا تقوى الدواعى عليه ، والضعيف الحرب بينهما سجال ، ودع من تقهره الأغراض حتى يموت وجدانه ، وإن الإفلات من العقائد أكبر مظنة لهذا الأمر .

هذا الوجدان هو منشأ الأخلاق ، فإن ساد الرأى العام فضيلة تربى عليها الوجدان ، وإن سادته رذيلة فإن العواطف تتعودها ، ويضعف فى الضمير استنكارها ، فالرأى العام هو المدرسة التى تتحكم فى أخلاق الأمة وتصبغها بقالبها .

المنزل والمدرسة والبيئة :

وتصوروا رحمكم الله ، تلك المدرسة الموبوءة التى يعيش فيها ويتربى أبناؤنا وبناتنا ، وقدروا وسائل الإغراء التى تحيط بنا من كل جانب ، ثم خبرونى لم لا يضعف الوازع فى القلوب ، وتموت الضمائر ، ويوأد الوجدان ؟

وكيف لا تفشو مساؤى الأخلاق ، وتنعدم المكارم من سائر الطبقات ، فيبخل الأغنياء ، وتجهل العامة ، ويستل اليقين من قلوب الأمة ، ويجد دعاة الإلحاد عداة الفضيلة فينا مرتعاً خصباً لبذور الكفر والفسق والفجور ، فى أسماء مزوقة تزين لذوى الشهوات ما هم فيه ، من غير أن يعرضوا ذلك على أصول المعرفة ؟

ومادام الأطباء غير موثوق بهم للتهمة التى لصقت بهم ، أنهم قوم لا شأن لهم إلا العبادة ، ولا علم لهم بشئون الاجتماع ، ومادامو لم يبرهنوا على رجحان آرائهم ، وينزلوا ميدان الإقناع ، ويشاركوا قادة الرأى فى معلوماتهم ، ويتسنموا المكانة التى تليق بهم فى هذا المجتمع ، ويحددوا بالدليل البين والحجة الواضحة ـ ولديهم الحق الذى يسمو على كل رأى ـ سبل السير الجامعة للكمال العلمى والعملى فى هذه الحياة ، كتاب الله ، وسنة رسوله ، وعمل السلف الصالح .

السبيل التى يجب أن تسلكها الأمة لتنجو من هذا الفساد :

ذلك حال الأمة ، ودواء تلك الأدواء أن نكون وسطاً يجتمع على مناهضة الداء ومحاربته حتى يزول ، ولابد من عمل ايجابى يُمَهد له بالأعمال السلبية ، وأقلها الاجتماع على ترك المنكرات المجمع على تحريمها ، والبدع المجمع على خروج صاحبها من الدين ، وترك الجدل فيما عدا ذلك ، فقد اختلف الصحابة فى الفتاوى وكانوا أحباباً ، والتابعون كذلك ، وتابع التابعين ، ولا عجب فالإسلام دين استقلال الرأى ، مادام لا يصادم أصلاً صريحاً ، وفى كل طبقة فئة صالحة ومنها يمكن تكوين النواة للمجتمع الصالح ، فإذا كونت عملت على انتشار الجماعات

العلمية والأدبية والأخلاقية للرجال والنساء ، فإن أعداء الملة الإسلامية قد أتوا عليها من هذا الباب ، والرجل إذا أراد أن يكون الأسرة الفاضلة استعصى عليه الأمر لغلبة العرف العام على أخلاق النساء ، وهذه الصورة الأولى التى تنطبع على صحيفة الطفل النقية ثم تستقر فى غاية نفسه حيث لا سلطان للعقل الظاهر .

وإن الأمم كالجسم له روح ، ومن الناس من هم مصدر حياة للجماعة ، فهم أرواح للأرواح ، وعقل الأمم الذى تفكر به .

فإذا وجدت هذه الجماعة ، وسلمت من داء الجماعات التى تقوم ثم تنتفض ، أو التى إن عاشت فكالزمن لا حياً فيرجى ولا ميتاً فيقبر ، وسبب ذلك غالباً أن منهم من يسخر الجماعة لعصبية يرتئيها ، أو لمحاربة نحلة خاصة ، أو رأى خاص وهذا هو الفشل الحق .

جماعة صالحة ، يقهرون قرارات القلوب على الثقة بهم ، تتلاشى أشخاصهم فى المقصد راجين بذلك وجه الله ، يوقنون أن تكوين ذلك المجتمع أعظم جهاد فى سبيل الله ، وأسمى غاية يحرص عليها أهل الحق ناصروه ومؤيدوه ، يرون أنفسهم ويرى الناس فيهم عصبة الله القائمة لله .

ولقد قتلت العوامل المختلفة روح الجهاد فى الأمة ، فأول شئ يجب أن يضعوه نصب أعينهم إحياء تلك الروح فى المجتمع الإسلامى ، ولا أريد الآن إلا الجهاد السلمى ، الجهاد المشروع ، الجهاد الهادى القوى ، وليس جهاد السيف بأفضل من إحياء موات الفضيلة وعناصر الحياة فى الأمة ، وتكوين عصبة صالحة متينة سداها ولحمتها الدين الحق والخلق المتين .

ومن العجب أننا لا نربى رجال الدين إلا لطريق محدودة ، وأفق لا يمكن أن يتخطوه ، ولو أمكنهم أن يدرسوا ما يؤهلهم لأسمى المراتب فى الدولة لكان خيراً لهم وللأمة ، إذ هم أحق بقيادة الدولة العملية ، وفى مقابل ذلك تجد القادة السياسيين غالبهم لا يعلم من الدين إلا ما يعلم من العوام ، وأغلب النشء المتعلم إنما قرأ عن الدين فى كتب أعدائه ، فملأت الحفيظة

عليه صدره ، فعلينا أن نسعى لسد تلك الهوة ، فيعلم عالم الدين الدنيا ، ويعلم عالم الدنيا الدين ، وإن بعض علمائنا لا يعلم من أمور الدنيا شيئاً ولا شعور له بما يحدث فى المجتمع الإسلامى .

فإذا انضم من كل طبقة من بقيت فيهم الروح الصالحة ، ولم يستطيعوا أن ينهضوا بالمجتمع الإسلامى ، فلينهضوا بجماعة خاصة ، وليكونوا مجتمعاً إقليمياً صالحاً ، وإلا ففى مدينة واحدة ، وإن بعض ما ينفقه شبابنا فى سبيل أهوائهم ، وأغنياؤنا فى سبيل الفخر والخيلاء ، ونساؤنا فى لا شئ ، لكفيل بالتدرج فى المشروع إلى الغاية المرجوة منه ، ومع هذا تكفل المثابرة ضمان الوصول إلى الغاية .

أما الخلاف المذهبى فى الأصول والفروع فلا دواء له الآن ، إلا أن نسعى فى التوفيق بين مختلف النظريات إن أمكن ، وإلا فحسبنا أن يكون كل على رأى لا يتنافى مع الدين ، وإن اختلف فيه ، ولعلنا نعرض بعد ذلك لبيان كيف نوفق بين مختلف النظريات فى مذاهب الأمم الإسلامية الحاضرة .

نسأل الله لنا ولكم العفو والعافية والتوفيق .

ومما كتب به سيدنا ومولانا العارف بالله تعالى أبو العباس التجانى رضى الله عنه إلى كافة تلامذته :

" بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد ،،،

فالذى أوصيكم به وإياى المحافظة على قوله صلى الله عليه وسلم : ((ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فهى تقوى الله فى السر والعلانية وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ، وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء برأيه)) ، وعلى قوله صلى الله عليه وسلم : ((ما تحت قبة السماء إله يعبد من دون الله أعظم من هوى متبع)) ، وعلى قوله صلى الله عليه وسلم : ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)) ، وعلى قوله صلى الله عليه وسلم : ((لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا...الحديث)) .

وهذا وإن ورد فى ميادين الجهاد فى قتال الكفار فهو منقلب فى هذه الأزمنة فى الصفح عن شر الناس ، فمن تمنى بقلبه أو أراد تحريك الشر منه على الناس سلطهم الله عليه من وجه لا يقدر على دفعهم ، وعلى العبد أن يسأل الله العافية من تحريك شر الناس وفتنتهم ، فإن تحرك عليه من غير سبب منه فالوجه الأعلى الذى تقتضيه رسوم العلم مقابلتهم بالإحسان فى إساءتهم ، فإن لم يقدر فبالصفح والعفو عنهم إطفاءً لنيران الفتنة ، فإن لم يقدر فبالصبر لثبوت مجارى الأقدار ، ولا يتحرك فى شئ من إذايتهم لإساءتهم ، فإن اشتعلت عليه نيران شرهم فليدافع بالتى هى أحسن بلين ورفق ، فإن لم يفد ذلك فعليه بالهرب إن قدر والخروج عن مكانه ، فإن عوقت العوائق على الارتحال ولم يجد قدرة فليدافع بالأقل فالأقل من الإذاية ،

فليفعل ذلك ظاهراً ، ويكثر التضرع إلى الله والابتهال سراً فى دفع شرهم عنه ، مـداوماً ذلـك حتى يفرج الله عليه ، فإن هذه الوجوه التى ذكرناها هى التى تقتضيها رسوم العلم .

والحذر الحذر لمن تحرك عليه شر الناس منكم أن يبادر إليه بالتحرك بالشر ، لمقتضى حـرارة طبعه وظلمة جهله وعزة نفسه ، فإن المبادر للشر بهذا ـ وإن كان مظلوماً ـ فاضت عليـه بحـور الشر من الخلق ما يستحق الهلاك به فى الدنيا والآخرة ، وتلك عقوبة لإعراضه عن جناب الله أولاً ، فإنه لو فزع إلى الله بالتضرع والشكاية واعترف بعجزه وضعفه لرفع الله عنه ضرر الخلق بلا سبب أو بسبب لا تعب عليه فيه ، أو يشغلهم الله بشاغل يعجزون عنه ، فإما أن يفعـل الله له هذا وإما أن ينزل عليه اللطف العظيم أو الصبر الجميل ، فيكابد غصص تلك الشرور بما هو فيه من اللطف والصبر حتى يرد عليه الفرج من الله تعالى ، فيكون مثاباً دنيا وأخرى ، أما ثواب الدنيا فبحمد العاقبة وظهور نصره فى الخلق على قدر رتبته ، وأما ثواب الآخرة فبالفوز بما لا غاية له من ثواب الصابرين الذى وعده الله تعالى ، قال سبحانه وتعالى : (وتمـت كلمـة ربـك الحسنى على بنى إسـرائيل بمـا صـبروا)[٨] ، وقـال سـبحانه وتعـالى : (واصـبروا إن الله مـع الصابرين)[٩] ، وقال تعالى حاكياً عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام : (إنه من يتق ويـصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[١٠] ، وقال تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)[١١] ، إلى غير ذلك من الآيات .

ولعدم اعتبار الناس بما ذكرنا ترى الناس أبداً فى عذاب عظيم من مكابـدة شـرور بعـضهم بعضاً ، ووقعوا بذلك فى المهالك العظام فى الدنيا والآخرة ، إلا من حفته عناية عظيمة إلهية ، فأما العامة فلا يرون فى تحريك الشر عليهم إلا صورة الشخص الذى حركه عليهم لغيبتهم عن الله سبحانه وتعالى وعن غالب حكمه ، فنهضوا فى مقابلة الشرور بحـولهم واحتيـالهم وصـولة

---

٨ ــ سورة الأعراف ، الآية ١٣٧ .
٩ ــ سورة الأنفال ، الآية ٤٦ .
١٠ ــ سورة يوسف ، الآية ٩٠ .
١١ ــ سورة النحل ، الآية ١٢٦ .

سلطان نفوسهم ، فطالت عليهم مكابدة الشرور وحُبسوا فى سجن العذاب على تعاقب الدهور ، فإن الكيس العاقل إذا انصب عليه الشر من الناس أو تحركوا له رآه تجلياً إلهياً لا قدرة لأحد على مقاومته إلا بتأييد إلهى ، فكان مقتضى ما دله عليه علمه وعقله الرجوع إلى الله بالهرب والالتجاء إليه ، وتتابع التضرع والابتهال لديه ، والاعتراف بعجزه وضعفه ، فنهض معتصماً بالله فى مقابلة خلقه ، فلا شك إن هذا يدفع عنه الشرور بلا تعب منه ، ولو التهبت عليه نيران الشر من الخلق لعجزوا عن الوصول إليه لاعتصامه بالله تعالى ، فإن من تعلق بالله تعالى لا يقوى له شئ ، قال سبحانه وتعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً)[١٢] إلى قوله : (فهو حسبه)[١٣] .

وهذا الباب الذى ذكرناه كل الخلق محتاجون إليه فى هذا الوقت ، فمن أدام السير على هذا المنهاج سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن فارقه وكله الله إلى نفسه فنهض إلى مقابلة الشرور بحوله واحتياله ، فهلك كل الهلاك فى عاجله وآجله ، وفيما ذكرناه كفاية .

وعليكم بشكر النعم الواردة من الله تعالى بسبب أو بلا سبب ، والشكر يكون فى مقابلتها بطاعة الله تعالى إن قدر ، على أن تكون كلية ، وإلا فالأبقع خير من الأسود ، وأقل ذلك شكر اللسان ، فلا أعجز ممن عجز عن شكر اللسان ، وليكن ذلك بالوجوه الجامعة للشكر ، فأعلى ذلك فى شكر اللسان تلاوة الفاتحة فى مقابلة ما أنعم الله عليه شكراً ، ولينو عند تلاوتها أنه يستغرق شكر جميع ما أحاط به علم الله من نعمه عليه الظاهرة والباطنة ، والحسية والمعنوية ، والمعلومة عند العبد والمجهولة لديه ، والعاجلة والآجلة ، والمتقدمة والمتأخرة ، والدائمة والمنقطعة ويتلو بهذه النية ما قدر عليه من الفاتحة من مرة إلى مائة ، فمن فعل ذلك كتبه الله شاكراً ، وكان ثوابه المزيد من نعمه على قدر رتبته بحسب وعده الصادق ، أما وجوه المحامد

---

١٢ ــ سورة الطلاق ، الآية ٢ .
١٣ ــ سورة الطلاق ، الآية ٣ .

الجامعة فهى كثيرة لا نطول بذكرها ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : ((لا أحصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك)) " انتهى .

ثم حذر فى هذه الرسالة تلامذته من استعمال نعم الله فيما حرم ، وحضهم على وزن المعاملة بالشرع ، وحذرهم أن يتهافتوا فى المعاملات المحرمة تهافت الجهلة محتجين لعدم وجود الحلال المعين ، وقال : " **هو كذب على الله وزور ، فقد قال تعالى : (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان... الآية)**[١٤] **، وقال سبحانه : (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا)**[١٥] " .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

١٤ ــ سورة البقرة ، الآية ١٦٨ .
١٥ ــ سورة التغابن ، الآية ١٦ .